✦ لو شئنا الحديث عن حضارة المشرق العربي، وحسب دراساتكم، أين معالم الافتراق والتلاق بين الثقافة الرافدية والثقافة الشامية / بلاد الشام / ولا سيما في العصور التاريخية ؟

أعجبني في السؤال دقة التسميات التي استعملتها. فالنتاج الحضاري لبلاد الرافدين والشام يندرج تحت مصطلح حضارة المشرق العربي. فهذه الحضارة استندت إلى الواقع الجغرافي والسكاني نفسه وواجهت عالماً " خارجياً " كانت على تفاعل مستمر معه. والباحث في هذه الحضارة يتابع سلم تطور حضاري موحد من خلال العصور المشتركة التي مرت بها. فالمشرق العربي مسرح لنقلات حضارية واسعة الامتداد عميقة الجذور، ولتفاعلات لغوية غزيرة المدونات والأدبيات، ولخصائص معمارية وفنية واضحة الأبعاد وفيرة الشواهد. وتبعاً لهذا كانت معالم التلاقي في أسس هذه الحضارة وفي نتاجها على اتساع آفاقه. أما معالم الافتراق فلا بد أن تكون موجودة بحكم التنوع الجغرافي والبيئي ضمن المنطقة وبتأثير اختلاف سرعة النمو والتراكم الحضاري، وهو ما لم يكن عملاً مجزئاً لوحدة الحضارة بقدر ما كان محركاً لقدرتها على تنويع نتاجها. فهناك تنوع محلي اقتران بذلك مثل تكاثف المدن في السهل السوري وتوزع مدن مناطق المطر الدائم وخصوصية مدن السهول في المناطق الجبلية وطبيعة مستوطنات حوض الفرات وملامح مدن الساحل في مقابل مدن أطراف البادية وحياة البادية نفسها. وكان في هذا التنوع غنى وقوة لحضارة المشرق العربي. وبالطبع لم يكن التنوع أو التوحد مقتصراً على العمارة والفنون وإنما كان يشمل الجوانب الفكرية والأدبية أيضاً. فأساطير متداولة في مناطق عماد حياتها النهر والري، لا بد أن تأخذ مسارات مختلفة في بنيتها وواقعها، عن المسارات التي تأخذها أساطير متداولة في مناطق تعتمد على المطر أو تطل على البحر.

ولكن التوحد يكون على أسس الفكر، إن كان من نتاج حضارة واحدة مثل حضارة المشرق العربي. وفي هذه الحالة تبرز خصائص مشتركة في أرجاء مختلفة من المنطقة كما في العمارة والفنون، أو يبرز نتاج فكري أو أدبي ليلاقي قبولاً في المنطقة كلها مثلما حدث لملحمة جلجامش.

✦ بصفتك متخصص في حقل الآداب واللغة الأكادية، هل يمكننا مقاربة العلاقة بين اللغة الأكادية واللغة العربية، وهل هذه العلاقة تعكس بعداً مجتمعياً تاريخياً يحمل سمة " الهوية " بما يؤدي للقول أن الأكاديين عرب.

اللغة الأكدية واللغة العربية شقيقتان من عائلة لغوية واحدة. أي أن هاتين اللغتين تفرعتا، مع شقيقتيهما الكنعانية والآرامية، من أصل واحد يتمثل في لغة أمّ لم تصلنا، لأن استعمالها سبق اختراع الكتابة. ويتميز المشرق العربي في أنه البقعة التي استعملت فيها هذه اللغات الشقيقة تكلماً وتدويناً، وكذلك استعملت اللهجات المتفرعة عن كل منها.

هنا نجد أنفسنا أمام مسألتين أساسيتين ينبغي التعامل معهما، الأولى تخص التسلسل التاريخي والانتشار الجغرافي لهذه اللغات. الثانية، عن هوية القوم الذين استعملوا كل منها.

إن تحديد التسلسل التاريخي يعتمد على التدوين، إذ من الصعوبة بمكان تحديد تاريخ لغة قبل تدوينها. وفي ضوء ذلك نستطيع القول أن اللغة الأكدية هي الأقوى، فقد دونت في الألف الثالث قبل الميلاد، ثم تلتها الكنعانية في الألف الثاني، والآرامية في الألف الأول قبل الميلاد، وأخيراً العربية في الألف الأول الميلادي.

أما من ناحية الانتشار الجغرافي فإن تحديده يعتمد على انتشار النصوص المدونة بتلك اللغات. أي أنه يعتمد على وجود قوم معينين في بقعة محددة. وهنا سنلاحظ تزامن وتداخل لا حدود لهما. فالنصوص الأكدية (البابلية والآشورية) غطت المنطقة كلها، والآرامية انتشرت في بلاد الرافدين والشام أيضاً، وهذا ما حدث للعربية أخيراً.

أما الكنعانية فقد دونت لهجاتها محلياً مثل الأوغاريتية، المؤابية، الأدومية، والعبرية، ذلك أن اللغة الرئيسة التي سبقت اللهجات، وكانت أصلاً لها، لم تدون بسبب الميل في حينها إلى التدوين بالأكدية. وإذا أتينا إلى موضوع تحديد الهوية سنجد أن أي لغة من اللغات الشقيقة لم تكن، بخلاف ما هو متوقع، معياراً لفصل قومي. فالأصل الواحد والحجم الكبير لما هو مشترك فيما بين تلك اللغات قدّم لنا واقعاً لغوياً متعدداً، مع مرونة هائلة للانتقال من استعمال لغة إلى أخرى دون أن يكون هناك فرض أو غضاضة. وهكذا نجد أن ملوكاً كنعانيين (آموريين) مثل حمورابي، يستعملون الأكدية في تدوين نصوصهم في الألف الثاني قبل الميلاد، وملوك آراميين، مثل آشور بانيبال ونبوخذ نصر الثاني، يستعملون الأكدية أيضاً (الآشورية والبابلية) في الألف الأول قبل الميلاد. وكذلك نجد تعددية لغوية في مدينة متطورة ثقافياً وحضارياً مثل أوغاريت، ونصوصاً ثنائية اللغة مثل النص المدوّن على تمثال هدد يسعي (بالأكدية / الآشورية والآرامية). ولا ينبغي أن ننسى أنه لعدة قرون، قبل الميلاد وبعده، كانت اللغة الآرامية هي السائدة في المشرق العربي، ثم أخذت اللغة العربية هذا الدور لاحقاً.

✦ ثمة ترجمات عديدة لملحمة جلجامش، قام بها باحثون عرب، ثم قمتم بترجمتها وتحقيقها وفق استنادكم على الكتابات القديمة. هل توصلتم إلى ما ينقض الترجمات السابقة، وما هي الإضافات الجديدة في هذا المجال. ؟

ملحمة جلجامش عبارة عن نص أدبي طويل دوّن على اثني عشر لوح واستنسخ عدة مرات، ولا بد من حدوث بعض التعديلات في تلك النسخ التي أنجزت في زمن تجاوز الألف عام. وتفرقت تلك النسخ وانضمرت تحت أنقاض العشرات من المواقع الأثرية في أرجاء المشرق العربي القديم وبلاد الأناضول لألفي عام. ومنذ ما يربو على مئة عام فقط، بدأت عملية اكتشاف كسر تلك الألواح بشكل متفرق، ولم تزل هذه العملية مستمرة. فالملحمة مدونة على ألواح من الطين تهشمت مرّ عليها ما مرّ، واختلطت بآلاف الكسر والرقم الكتابية في المواقع التي تركت فيها. ومع اكتشاف أجزاء من ألواح الملحمة تجري عملية قراءة وترجمة لكل جزء على حدة. ولما كان علم المسماريات علماً حديثاً لم ترسخ قواعده تماماً ولم يزل في تطور مستمر، فإن قراءة أجزاء الملحمة بحاجة إلى تصحيح وإعادة مستمرة وخصوصاً للقراءات والترجمات التي مضى عليها عدد من العقود. وهنا لا بد من الإشارة إلى أن اكتشاف كسر جديدة من ألواح ملحمة جلجامش لا يقتصر على المواقع الأثرية وإنما يشمل مخازن المتاحف العالمية في عدة بلدان حيث توجد آلاف الكسر التي لم تنسب إلى نصوص معينة ولم تقرأ حتى الآن. وقد جرت في عام /1930/م محاولة مهمة لجمع الكسر المتفرقة من ألواح الملحمة ونشرها وذلك على يد كامبل طومبسن. ولكن نسبة ما اكتشف من الكسر، منذ ذلك التاريخ حتى اليوم يفوق في حجمه ما استطاع جمعه ونشره.

إن هذا الأمر معروف في الغرب حيث تجري عملية قراءة وترجمة الكسر المكتشفة من النص المسماري مباشرة إلى اللغات الأوروبية الحديثة. ولكن المشكلة تكمن عندنا في موطن الملحمة الأصلي، فبعد فقدان دور المؤلف والمبدع للنص مع غروب شمس حضارتنا القديمة، فقدنا دور الناقل من النص الأصلي إلى لغتنا في العصر الحديث. وهكذا اقتصر دورنا على ترجمة الترجمات الأوروبية لملحمة جلجامش إلى اللغة العربية. والأنكى من هذا أن مختصينا ابتعدوا حتى عن متابعة إعادة تشكيل الملحمة وتواصل اكتشاف أجزائها. وكانت النتيجة تكوّن

تصور بأن الترجمات العربية التي ظهرت لملحمة جلجامش هي ترجمات للنص المسماري وليست نقلاً عن ترجمات أوروبية متفرقة وغير كاملة للملحمة. وهذه الترجمات العربية تمت بالطبع دون أي إدراك إلى ما يشوب الترجمات الأوروبية من نقص أو ابتعاد عن النصب المسماري أو مدى التصرف فيه. وهكذا تحولت ملحمة جلجامش في الترجمات العربية إلى متاهة لم يصرّح بها صانعوها ولم يعرفها قراؤها.

لذلك فقد قمت في ترجمتين لملحمة جلجامش /2006/م بجمع كل الكسر المكتشفة حتى الآن وقراءة نصها المسماري وترجمته مباشرة إلى اللغة العربية. ويمثل مجموع هذه الكسر حالياً ما نسبته أربعة أخماس نص الملحمة والبقية ما زالت غير مكتشفة. والآن نستطيع أن نقول أنه أصبحت لدينا ترجمة عربية مباشرة للنص المسماري لملحمة جلجامش.

✦ تحدثتم إلينا / بشكل شخصي / عن أدلة كتابية أدت إلى تحديد أولي لمكان وجود قبر جلجامش هل يمكنكم إفادتنا من جديد حول هذا الأمر.

كانت هناك كسر من نص مدون باللغة السومرية عرف عند علماء المسماريات بعنوان " موت جلجامش " ولكن النص غير كامل والكسر في حالة سيئة وقد لخصت مضمونها في كتابي / عقائد ما بعد الموت في حضارة بلاد وادي الرافدين القديمة / (بغداد 1986،1978). ونشر الأستاذ الراحل طه باقر الترجمة العربية للأسطر الموجودة في تلك الكسر في الطبعة الرابعة من كتابه/ ملحمة جلجامش / (بغداد 1980 م). وكانت تلك الكسر قد اكتشفت في موقع مدينة نفر في جنوب العراق. وكاد الأمر ينتهي عند هذا الحدّ، ولكن حدث أن كنت أقوم بالتنقيب في تلول السيب وحداد في منطقة حوض حمرين في ديالى، شرق العراق، في الأعوام 1978–1980م. وكشفت تلك التنقيبات عن أن ذلك الموقع يضم بقايا مدينة ميتورناة التي ازدهرت في أوائل الألف الثاني قبل الميلاد واستمرت حتى أواخر الألف الأول قبل الميلاد. وقد استخرجت من هذا الموقع مئات الرقم المسمارية، وكانت مفاجأة كبيرة أن تكون بين تلك المكتشفات ألواحاً تحمل النص الكامل تقريباً لقصة موت جلجامش الذي نشرت ترجمته العربية في كتابي الأخير / ملحمة جلجامش: ترجمة النص المسماري مع قصة موت جلجامش والتحليل اللغوي للنص الأكدي / (دمشق، 2006م). والجديد في الأجزاء المكتشفة من هذا النص أنها تصف الأيام الأخيرة في حياة جلجامش والظلال التي كانت لم تزل تكتنف مفهومه للموت حتى رضخ له. ويذهب النص إلى أبعد من ذلك ليصف لنا لحظة موت جلجامش وتشييد ضريحه ومراسم دفنه. ونعلم من النص أن موضع الضريح كان في قعر نهر الفرات بعد أن حول مجراه ليشيد الضريح بالحجر وتختم فتحاته ويغلق مدخله ثم أن النهر أعيد لمجراه السابق ليخفي الضريح عن العيون.

✦ في مؤلفكم " المعجم المسماري "، يبدو أنكم اتجهتم إلى محاولة تأسيس قراءة جديدة لكتابتنا القديمة.. هل يمكننا معرفة ما توصلتم إليه ؟

بصراحة، نحن مختلفون كثيراً في مجال قراءة النصوص المسمارية ورداسة اللغتين السومرية والأكدية. وهذه الدراسة مقتصرة على الأجانب ونحن الطرف المتلقي فحسب. السبب وراء هذا التخلف هو انعدام وجود الوسيلة لدى الباحثين الذين تتوفر لديهم الرغبة في تطوير قدراتهم على دراسة النصوص المسمارية. ثم أن عدداً منم المختصين، وهذا ما حدث بوضوح في العراق، حاولوا أن يخفوا ضآلة ما تعملوه في الغرب بهذا التخصص عن طريق إبعاد الآخرين عنه أو حصر تعلمه على جزء مما تعلموه، وما تعلموه يستحق الرثاء حقاً.

على العكس من ذلك في الغرب، فالباحثون لديهم كل الوسائل المساعدة من مصادر ومعاجم ومؤسسات، وليس أمامهم من أبناء جلدتهم من لا يريد لهم التعلم، ولا من الأجانب عنهم من يريد أن يدمر لهم متاحفهم ومؤسساتهم الثقافية والعلمية على رؤوسهم بكل وسائل القوة المدمرة

واستباحة دماء المتعلمين. من هنا بدأت في العمل على تأليف المعجم المسماري، الذي صدر الجزء الأول منه في بغداد عام /2000/م ، ليقدم للباحث والقارئ العربي الكثير مما يمكن لكل المعاجم الأجنبية أن تقدمه، وبذلك يمكن أن تغير المعادلة غير المنطقية التي حكمت باقتصار قراءة النصوص المسمارية وترجمتها على الخارج. وأنا الآن بصدد إعادة كتابة الجزء الأول ليطبع بشكل جديد وأكثر فائدة مع الأجزاء التسعة الأخرى التي لم تزل غير منشورة.

✦هناك إشكالية عرفت بحقل الدراسات التاريخية / بالإشكالية السومرية /.. لغة وكتابة ووجوداً. هل ثمة أفكار جديدة حول هذا الأمر ؟.

هناك فعلاً ما يمكننا تسميته بالإشكالية السومرية. ولعل أعقد ما في هذه الإشكالية أننا كنا نواجه السؤال الخطأ ونبحث عن الجواب الصحيح. وهذه حلقة مفرغة لا حل لها، ويبدو أن هذا هو ما أريد لنا. فالسؤال الذي واجهناه دائماً، وأعطت جامعاتنا فصولاً دراسية عنه، هو: من أين جاء السومريون ؟ وتراوحت الإجابة على ذلك ما بين شبه القارة الهندية والفضاء الخارجي !!.

والخطأ في السؤال يتمثل في عدم التثبت أولاً من وجود السومريين أو دخولهم إلى المنطقة قبل السؤال عن أصلهم. إنه موضوع بحث طويل ألقيت خلاصته في ندوة أقامها مجمع اللغة العربية في طرابلس بليبيا في عام /2005م/ وسينشر في كتاب جديد في هذا العام.

إن الدليل الوحيد على وجود السومريين هو وجود اللغة السومرية ولكن هل يمكن أن نستدل من وجود لغة خاصة بالتدوين فقط، ولا يمكن استعمالها في التخاطب، على وجود قوم؟ وكيف أغفلنا حقيقة أن ما يعرف بالأدب السومري، أي الأدب المدوّن بتلك اللغة، لم يدون قبل العصر البابلي القديم، أي بعد الاختفاء المفترض للسومريين ؟

إن البحث الذي ذكرته يثبت بأدلة واضحة أن السومرية هي طريقة للكتابة استعملها الأكديون قبل أن يتوصلوا إلى تدوين لغتهم وأن ما دوّن بالسومرية كانوا هم أصحابه، ولا أدري كيف فاتتنا، نحن تصديق أن أسماء الأعلام المصاغة بالسومرية كانوا هم أصحابها، إن أنخيدو – أنّا صاحبة الاسم السومري الصيغة، هي ابنة سرجون الأكدي، أي إن الملك الأكدي أنجب في وقته ابنة سومرية. وهناك العشرات من الأدلة التي يتضمنها البحث بخصوص ما نطرحه.

✦ كيف يمكننا تقديم رؤية موضوعية وشاملة لحركة التاريخ في المشرق العربي / الرافدين وبلاد الشام / استناداً إلى النصوص وما الإضافات التي قدمتها ثقافة إبلا في هذا المجال.. وكذلك اكتشاف مدينة حمو كار التي يبدو أنها ستعيد قراءة التاريخ المشرقي لجهة نشوء المدن الأولى.

إذا أردت تلخيص قصة التدوين في المشرق العربي بكلمات، يمكنني القول أن حضارة هذه المنطقة ابتكرت طريقة للتدوين الأول وهي الكتابة المسمارية بالطريقة السومرية، وهذه الطريقة أوصلتهم إلى تملك المقاطع، أي العلامات ذات اللفظ الصوتي. وهذه النقلة العبقرية مكنتهم من تدوين لغتهم الأكدية بكل تعقيداتها من صرف وإعراب واشتقاقات. وقد ظهرت مراكز فكرية قادت الانتقال إلى هذا المستوى من الإبداع سواء في جنوب العراق أو في سورية. ففي جنوب العراق قامت مدن كيش، شروباك وأدب بهذا الدور، مثلما قامت به إبلا في سورية. وفي إبلا يتجلى ذلك الانتقال السريع من طريقة التدوين السومرية إلى تدوين الأبلائية الأكدية. ولكن هذا الموضوع المثير لم ينل حظه من الاهتمام. إذ انصرفنا كالعادة، أو صُرفنا، إلى البحث عن أجوبة على أسئلة خاطئة وتركنا القضية الأهم بلا سؤال ولا جواب.

✦ من خلال الكتب التي نشرتها مؤخراً، ومنها المعجم المسماري وشريعة حمورابي وملحمة جلجامش وكتاب الحياة والموت وكتاب المعابد والمدافن، ما الذي تهدف إلى تحقيقه ؟

تتوزع هذه الكتب على ثلاثة مجالات هي اللغات القديمة، الدراسات الآثارية، والدراسات الحضارية. وهذه المجالات الثلاثة هي عماد تكوين فهم عميق وصحيح لحضارة المشرق العربي القديم، ولا يمكن للباحث في هذه الحضارة إلا أن يتعامل معها. لذلك فإنني أحاول تقديم بعض الوسائل للبحث العربي وللقراء عموماً بما قد يساعد على معالجة هذا الخلل المأساوي المتمثل في فقر المكتبة العربية، إلى درجة قريبة من الإفلاس في دراسة واحدة من أكثر الحضارات الإنسانية أصالة وعمقاً وثراء ومساهمة في بناء التطور الحضاري للعالم الحديث، في مقابل ما أنجز عن هذه الحضارة في أوروبا وأمريكا. وهذه الكتب هي جزء من مشروع ضخم بدأت العمل به قبل ثلاثة عقود وستكون حصيلته أكثر من ثلاثين كتاباً أطمح إلى أن تكون أساساً لاتجاه عربي جديد في دراسة آثار المشرق العربي القديم وحضارته، وهو اتجاه لا يقوم على ما نتلقاه ونكرره وإنما على ما نبحث فيه وما نتفاعل معه ونتوصل إليه.

من كتابنا : حوارات في الحضارة السورية . د. بشار خليف